القسم الثانى

ثانيا:

آراء وأفكار لغوية بين الإمام الجرجانى والمفكر ابن خلدون وبين العالم الدكتور ناحوم تشومسكى

– لقد فضلت أن آخذ آراء الدكتور تشومسكى من كتاب الدكتور خليل أحمد عمايرة –رحمه الله – وكتابه هو : (فى نحو اللغة العربية – منهج وتطبيق)[1]. ذلك .. لاعتبارين – الأول .. أن الدكتور خليل استصفى الآراء المهمة فى نظرية الدكتور تشو (على أنى قرأت كتب – تشو – فى اللغة) ..

– الثانى – أن عمايرة علق على هذه الآراء – قبولًا – (ومن غير مراجعة جملة واحدة – يناقشها، ويفندها، أو يذكر الجوانب الإيجابية فيها، والجوانب السلبية. وهذا.. يشير إلى أننا – نحن العربَ – وأبناءَ العالم الثالث كله ما نزال، فى ضلالنا القديم الذى بدأ منذ غزْو نابليون لمصر، قُرابةَ نهاية القرن الثامنَ عَشَرَ فنحن أيتها الأمة التى فقدت قدرتها على الإسهام فى الحضارة – أمسينا على قناعة أن المستشرقين، ومثلُهم العلماءُ الغربيون لا يخطئون. «فكل فِرنجْى – عندنا – بَرنْجى»، أو كما قال ابن خلدون: المغلوب.. مولع أبدًا، بتقليد الغالب).

(١) السعودية، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

– والآن إلى موجز أفكار هؤلاء العباقرة الثلاثة:

نظرية اللغة بين ابن خلدون وعبد القاهر الجرجانى وبين ناحوم تشومسكى:

– سأكتفى – هنا – بالمقارنة بين نظرية الإمام عبدالقاهر الجرجانى الذى عاش فى القرن الخامس الهجرى – الثانى عَشَرَ الميلادى وآراء المفكر ابن خلدون (الذى عاش فى القرن الثامن)، أى فى القرن الرابعَ عَشَرَ الميلادى، من جهة – وبين نظرية الدكتور: ناحوم تشومسكى الذى ولد فى القرن العشرين.. عام ١٩٢٨م – من جهة أخرى. سأكتفى بالمقارنة الموجزة بينهم لأهمية النظريتين، ولأهمية آراء ابن خلدون اللغوية، ولأن عبد القاهر الجرجانى كان أدقَّ فهمًا بعلاقة اللفظ بالمعنى – كما أرى – من تشو.

– فى الطبعة الأخيرة المنقحة لنظرية تشو يعرض الدكتور العمايرة أهم النقاط فيها على النحو التالى: (وقد ترتب على هاتين الفرضيتين (الفطرية والشمولية) فرضية أخرى تبرز فى المصطلحين التاليين: الكفاية (Competence)، والأداء (Performance) فالكفاية تكون فى امتلاك المتكلم – السامع): Ideal hearer-Speaker القدرة على إنتاج عدد هائل من الجمل من عدد محدود جدًا من الفونيمات[1] الصوتية، والقدرة على الحكم بصحة الجمل التى يسمعها من وجهة نظر نحوية تركيبية – ثم.. القدرة على الربط بين الأصوات المنتجة وتجميعها فى مورفيمات[2]

(١) الفونيم.. يراد به صوت الحرف داخل الكلمة. ويمكن أن نترجمه بكلمة (الصُّوَيْت).

(٢) والمورفيم.. يراد به صوت الكلمة الواحدة. ويمكن أن نترجمه بكلمة (الصُّوَات).

تنتظم فى جمل، والقدرة على ربطها بمعنى لغوى محدد. ذلك كله يتم بعمليات ذهنية داخلية يتم التنسيق بينهما بما يسمى «إنتاج اللغة»[1]. وأقول: ولا يعى المتكلم: كيف تتم هذه العمليات الذهنية الداخلية.

١- ترجمةُ العمايرة لكلمةٍ غير دقيقة:

أقول: المؤلف (العمايرة) ترجم كلمة (Competence) بكلمة (الكفاية) وهذه الترجمة غير دقيقة. فالكفاية لا تعنى (الكفاءة) وإنما تعنى -الاكتفاء - وواضح أن معنى الاكتفاء.. ليس هو المقصود، وإنما المقصود هو (الكفاءة) -أى - القدرة اللغوية. وأنا أفضل كلمة (القدرة اللغوية) وأفضل على كلمة القدرة كلمة ابن خلدون، وهى: (الملكة)، لأن الكفاءة تعنى.. القدرة الكاملة، فنحن عندما نقول: فلانٌ كُفْءٌ ليكون باحثًا.. فمعنى ذلك أن لديه القدرة الكاملة ليكون باحثًا - (طبعًا القدرة الكاملة فى حدود الكمال البشرى). ولكن، عندما نقول: فلان لديه الكفاية ليكون باحثًا.. فإننا لا نشعر بأنه ذو كمال فى البحث. وهذا.. ما يمكن أن يؤخذ من المثل التوضيحى فى معجم (أكسفورد الحديث) يقول المعجم: (Competence=Having).

The ability or skill that is need: she quickly proved her - Competence - in her new position)

فـ (ability) هى أقرب إلى معنى القدرة - من معنى (الكفاية). لأن العبارة السابقة تقول: لقد أثبتت (الفتاة) بشكل سريع - كفاءتها، أو قدرتها (وليس.. كفايتها) فى وظيفتها الجديدة.

(١) خليل عمايرة، فى نحو اللغة وتراكيبها، ٥٤.

إذن.. هـى (القدرة) وليسـت (الكفايـة). أو هى «الملكـة» كما قال ابن خلدون.

– أما كلمة (الأداء) – اللغوى – ترجمة لكلمة (Performance).. فمناسبة.

– ثـم يقول عمايرة: (وهذه القواعد القوانين وتلك القدرة كامنتان فى الذهن، وأما اسـتعمالها (أى: اسـتعمال اللغة) فيسمى الأداء. فالأداء: هـو الكلام أو هو الجمل المنتجة التى تبدو فونيمات ومورفيمات[1] تنتظم فى تراكيب جملية خاضعة للقواعد والقوانين اللغوية الكامنة، والمسؤولة عن تنظيم هذه الفونيمات والمورفيمات فى تراكيبها. فهو (الأداء) الوجه الظاهـر المنطوق للمعرفـة الضمنية الكامنة باللغة. ولكـن هذا الوجه قد لا يحصل بينه وبين الكفاية تطابق تام، فيكون فيه انحراف (خطأ) ناتج عن عوامل مقامية سياقية، أو ذهنية نفسية اجتماعية.. إلخ.

(وقد ارتبط بهاتين الفرضيتين فرضيتان أخريان فى نظرية تشومسكى هما: البنية العميقة Deep structure) والبنية السـطحية (Surface Structure) أمـا البنيـة العميقة فهى الأسـاس الذهنى المجرد لمعنى معين يوجد فى الذهن، ويرتبط بتركيب جملى أصولى يكون هذا التركيب رمزًا لذلك المعنى وتجسيدًا له، وهى النواة التى لابد منها لفهم الجملة، ولتحديد معناها الدلالى، وإن لم تكن ظاهرة فيها...

(وبصرف النظر عن الكيفية التى تأتى عليها البنية السـطحية هذه. فقد تكون، كما ذكرنا قبل قليل، وقد ينطق بها المتكلم، مقدمًا جزءًا من

(١) مورفيـم: يمكـن أن نصطلـح عليـه بـ (الصُـوَات) – الـواو بدون تشـديد. (انظر: سابقًا).

الجملة النواة على الآخر... وهذا كله لا يقدم ولا يؤخر فى المعنى الذى فى ذهن المتكلم أو فى الكشف عنه)[1].

٢ - اللغة فطرية:

أقول: إن معنى قول -تشو-: إن اللغة فطرية.. هو أن الإنسان يستطيع أن ينتج اللغة ولا يستطيع ذلك سائر الحيوانات.. وتوضيح ذلك.. أن فى الدماغ خلايا خلقت «مستعدة» لاستقبال اللغة. وهذا أمر بديهى[2]؛ فالإنسان لا يحصل شيئًا من العلم، سواء أكان فى مجال العلوم أو الآداب أو المعارف الإنسانية، إلا إذا كان لديه استعداد فطرى لذلك أى: لديه قُدرة - بالإمكان -، أى؛ لديه خلايا فى الدماغ تستطيع، بالتعاون مع عضوية الجسم، ومع الوجدان خاصة (أى: العواطف والمشاعر والأحاسيس) أن تستقبل شتى المعارف والعلوم. ولذلك.. لأن الإنسان لم يخلق لديه استعداد فطرى للطيران - دون واسطة - لا يستطيع أن يطير على ارتفاع عشرين مترًا، ولو ظل يتدرب طول حياته، بينما تستطيع ذلك الطيور، لأنها خلقت وفى جسمها استعداد للطيران، فتأخذ تطير بعد الولادة بأسبوع أو بشهر، يبدأ طيرانًا ضعيفًا ثم يشتدّ.

إذن - تشو - بهذا - لم يأت بشىء جديد غير معروف لكل العقلاء، أو على الأقل - لكل المثقفين العقلاء.

---

(١) المرجع نفسه، ٥٥ - ٥٩.

(٢) بعض الكتاب يقول (بدهى). وهذه الصيغة.. لا تقاس على (فعيلة-فعلي/مثل: ربيعة - رَبَعى) لأنها صيغة مسموعة عن العرب. والقياس هو لما يولده الناس بعد عصور الاحتجاج لا لما سمع عن العرب. فما سمع من العرب - ولو كلمة واحدة - يُقاس عليه - ولكن - لا ينقاس على غيره، فهو بذاته - قاعدة.

٣ - معنى أن اللغة شمولية:

– وإن معنى قوله: إن اللغة شمولية.. هو أن هذه الخلايا التى فى الدماغ فيها قدرة على تنظيم اللغة فى قواعد وقوانين محدودة العدد، تمكن الإنسان من صوغ جمل غير محدودة العدد. ومن معرفة الصائب منها من الخطأ، سواءً أكان هو المنتج لها أم كان غيره هو المنتج لها.

– وأقول: هذا أمر سبق به ابن خلدون تشو بستة قرون؛ فابن خلدون يرى أن تكون الملكة اللغوية (أو القدرة اللغوية) إنما تحصل من خلال سماع القول الفصيح وقراءاته والدربة على استعماله. أى: إن الإنسان يقوم بعمليتين مترافقتين متعاقبتين: يتلقى اللغة شيئًا فشيئًا ويمارسها شيئًا فشيئًا[1]. وأقول: إن هذا الكلام يعنى أن الدماغ قابل لاستقبال اللغة، وقابل لإنتاجها فى لحظات متعاقبة، بعضها للاستقبال وبعضها لإنتاج اللغة. ذلك.. عن طريق تَكَوُّن مسارب فى الدماغ لذلك. أى – عن طريق تكون قواعد مجردة فى الدماغ.. تنتج الكلام ويقاس بها الكلام المنتج، لمعرفة ما هو صواب منه، وما هو خطأ.

– وهذا.. نص كلام ابن خلدون:

٤ - إن اللغةَ ملكةٌ صناعيةٌ:

اعلم أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة، إذْ هى ملكات فى اللسان، للعبارة عن المعانى. وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها. وليس ذلك بالنظر إلى المفردات، وإنما هو بالنظر إلى التراكيب. فإذا حصلت الملكة التامة فى تركيب الألفاظ المفردة، للتعبير بها عن

(١) انظر: ابن خلدون، المقدمة، ١٢٣٤.

المعانـــى المقصـــودة، ومراعاة التأليـــف الذى يطبق الـــكلام على مقتضى الحـــال، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للســـامع، وهذا هو معنـــى البلاغة. والملكات لا تحصـــل إلا بتكرار الأفعال[1] لأن الفعل يقع أولًا وتعـــود منه للذات صفة، ثم يتكور فتكون حالًا. ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة، ثم يزيد التكرار فتكون ملكة، أى-صفة راسخة.

فالمتكلـــم من العرب حين كانت ملكة اللغـــة العربية موجودة فيهم، يســـمع كلام أهل جيله، وأساليبهم فى مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم؛ ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد فى كل لحظة ومن كل متكلم، واستعماله يتكرر إلى أن يصير ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهم.

هكـــذا تصـــيرت الألســـن واللغـــات مـــن جيـــل إلى جيـــل وتعلمها العجم والأطفال[2].

٥ - أليست اللغةُ اكتسابًا؟

– ويقول الدكتور العمايرة: (فليس الأمر فيما يرى تشومسكى اكتسابًا، كما يراه الســـلوكيون، يتم بالتقليد والمحاكاة والتخزين فى الذهن الذى يولـــد صفحة بيضاء) إذن فالقواعد والقوانين النحوية المســـؤولة عن بناء الجمل وتراكيبها.. فطرية ذهنية كلية عالمية).

– هكذا يرى تشو.

فأقول: إن نظرية تشـــو لا تقول الحقيقة، وإن نظرية الســـلوكيين لا تقول إلا نصف الحقيقة. أعنى أن اللغة لا تكتســـب إلا بواسطة شيئين: الأول وجود خلايا فى الدماغ مســـتعدة لاســـتقبال اللغة كما سبق القول.

(١) المقدمة، ١٠٧١ – ١٠٧٢.

(٢) المقدمة، ١٠٧١.

والثانـــى وجود لغة تحلّ فى هذه الخلايا عن طريق الاكتســاب. وبهذا يكون رأى ابن خلدون أقرب إلى الصحة من الرأيين السابقين، لأنه جمع بين الاكتساب والاستعداد للاكتساب، تقوم بهما خلايا فى الدماغ. يدل على ذلك قول ابن خلدون السابق: (ويحتاج مع ذلك إلى سلامة الطبع، والتفهم الحسن لمنازع العرب، وأساليبهم). فسلامة الطبع تعنى أن طبع الإنســان أى – فطرته مســتعدة لتلقى اللغة، وأن التلقى يكون أجود إذا كان الطبع (=الفطرة) سليمًا.

– وإن قــول القــرآن – التــالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾ – [النحل–٧٨] – أوضــحُ، فى أن الإنســان يولد صفحة بيضاء، لكن، فيها «الاســتعداد» لتلقــى المعارف والعلوم (ومنها اللغة) ثــم لإلقائهما إلى الآخرين. أحيانًا بــلا زيادة وأحيانًا مع زيــادة إبداعية. يدل على الزيادة (والإبداع) قوله تعــالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٢] – فهذا.. يعنى أن هناك علمًا يأتى به من يتقى الله تعالى، زيادة على علم الكتب. وقد يأتى به كل مخلص لعمله.

– ونحن نســتطيع أن نســتخلص مــن ذلك مبدأ «عامًــا»[1] وهو أنه فــوق العلم الموجود بين الناس، والمــودع فى بطون الكتب –هناك.. علم مُضاف يأتى به العباقــرة والمبدعون، الذين يخلصون لموضوعات بحثهم التى يعالجونها فالإخلاص.. صنو التقوى، إنما الإخلاص وَحْدَهُ للدنيا، أما الاتقاء.. فللدنيا وللآخرة.

---

(١) (مبدأ) يجدر أن يأتى، بعد الهمزة فيها، ألِفٌ منونةٌ تنوين فتح؛ لأن – مبدأ – مثــل – مربعًا – فنحن نأتى، بعد العــين، [والهمزة أخت العين] – بألف منونة تنوين فتح – فالكمال فى رسم صوت الكلمة (مبدأ) هو ما أثبتُه – آنفًا.

ومما يدل على أن قول – تشو – ليس دقيقًا أنه لو كانت قواعد اللغة وقوانينها [المجردة].. موجودة فى الدماغ، أصلاً، باعتبارها فطرية ذهنية كلية عالمية – إذن.. لكانت كل اللغات على نحو واحد من التراكيب، أى – لكانت أنماط التراكيب – كلها.. متماثلة. وهذا.. غير حاصل. فاللغة الإنجليزية –مثلاً – فيها تراكيب كثيرة تختلف عن تراكيب فى العربية. مثلاً، فى الإنجليزية يقال:

(All the prophets are great men. This is a right statement).

أما فى العربية..فيقال: (كل الأنبياء..كانوا رجالاً عظماءَ. وهذه مقولة صادقة).

فنحن نرى أن الإنجليزية قدمت –الصفة على الموصوف – a right statement أما العربية فقد أخرت الصفة عن الموصوف – مقولة صادقة – فصادقة هى الصفة. و (right) هى الصفة المقدمة على الموصوف (Statement).

إذن.. الأصلُ وجود استعداد – لا قوالب وقوانين–. ولكن هذا الاستعداد.. ليس قالبًا جامدًا، وإنما هو صفيحة – مرنة – تتشكل بنوع اللغة التى تدخل إليها، (وبنوع العلم والخبرات).

٦ - القدرة والأداء

وأقول: إن الكفاية (التى اصطلحنا عليها بكلمة – القدرة – أو الملكة) والأداء.. القدرتين اللتين وردتا فى النص الذى نقلناه من شرح الدكتور العمايرة لنظرية الدكتور – تشو – لا تختلفان كثيرًا عن الفطرية والشمولية اللتين علقنا عليهما – سابقًا. فالكفاية تعنى تخزين اللغة،

مفردات وتعابير، وخلال ذلك تتكون فى خلايا اللغة فى الدماغ القوالب والقوانين التى تسير عليها اللغة، والتى تؤدى إلى أن تكون هذه الخلايا قادرة على إنتاج عدد غير محدود من الجمل – عن طريق هذه القوالب – من عدد محدود من الجمل التى تشكل القوالب فى الدماغ، ولكنها تظل فى حالة كمون حتى يثيرها مثير خارجى أو داخلى، فتبرز منها –عمليًا – الجمل التى تتناسب وهذا المثيرَ، وهذا.. هو الأداء. هو القدرة على الإنتاج الفعلى للجمل المرتبطة بالمثير التى تعبر عن معنى.

ومثل هذا القول الأخير عن كمون المعانى فى النفس، والعقل وأنها لا تظهر – ولا تتولد – إلا بمثير.. قاله الإمام عبدالقاهر الجرجانى فى كتابه (دلائل الإعجاز) منذ القرن الخامس الهجرى – الثانى عَشَرَ الميلادى – قال: (وإذا كان لا يكون فى الكَلِم نظم ولا ترتيب إلا بأن يصنع بها هذا الصنيع ونحوه، وكان ذلك كله مما لا يرجع منه إلى اللفظ شىء، ومما لا يتصور أن يكون فيه ومن صفته.. تبين لك أن الأمر على ما قلناه من أن اللفظ تَبَعٌ للمعنى فى النظم، وأن الكلم يترتب فى النطق حسب ترتيب معانيه فى النفس، وأنها لو خلت من معانيها حتى تتجرد أصواتًا وأصداءَ حروفٍ.. لما وقع فى ضمير ولا هجس فى خاطر أنه يجب فيها ترتيب ونظم، وأن يجعل لها أمكنة ومنازل، وأنه يجب النطق بهذه قبل النطق بتلك)[1].

معنى قول الجرجانى:

أقول قوله: بأن اللفظ تبع للمعنى فى النظم، وأن الكلم يترتب فى النطق حسب ترتب معانيه فى النفس» يعنى شيئين: الأول – أن المرء

(١) دلائل الإعجاز، ٥٥ – ٥٦.

لا يستقبل ألفاظًا دون معان، وغالبًا ما تأتى الألفاظ فى تعابير تقوم على معـانٍ مركبة. وثانيًا – أنه ينطق الألفـاظ – غالبًا فى تعابير تترتب فى النطق والكتابة حسـب معانيها فى النفس (أى: العقل) وهذا.. يعنى أن مستقرّ المعانى هو النفس (العقل)، ولن تستقر المعانى فى العقل لولا أن لها خلايا معينة فيه قادرة على الاستقبال، ولن تكون صالحة للاستقبال لولا أن تكونت فيها مسارب (قوالب) [1] للمعانى وللألفاظ، كمفردات وتعابير تقوم على أساس هيئات تراكيب تكونت فى هذه الخلايا بكيفية مجهولة. وهذه المسـارب وهذه التشـكلات التركيبيّة قادرة علـى التعبير بالألفاظ بترتيب حسب ترتيب المعانى فيها. ولما كانت المعانى غير متناهية فهذا يعنى أن هذه المسـارب وهيئات التراكيب (تشـكيلات التراكيب) قادرة على توليد ما لا يحصى من المعانى، بسبب مُثير، يحملها ما لا يحصى من «التعابير» المنضبطة بهيئات التراكيب المحدودة، وإلا.. لما اسـتطاع متكلم أن يأتى بجديد فى المعنى الذى يسـتتبع ألفاظًا جديدة، أحيانًا، أو ترتيب ألفاظ قديمة ترتيبًا جديدًا، أو جمعًا بين بعض الألفاظ الجديدة والألفـاظ القديمة مع ترتيب جديد لها. وهذا.. التغير فى الترتيب يصير أكثر عندما يكون الترتيب صادرًا من أديب، وخاصة من شاعر.

---

(١) المسارب، أو القوالب.. هو مصطلح مجازى، ليس أكثر، من أجل تقريب الأمر، لأن الخلايـا الخاصة باللغة، لو فحصت..فلن يكون فيها مثل هذه المسـارب، فالكيفية مجهولـة – إلى الآن – كمـا أن كيفيـة معرفتنا لما أمامنا: أجميل هـو أم غير جميل – مجهولة الكيفية. فنحن نلاحظ – النتائج العملية – ولا نلاحظ –ماديًا – كيفية تشكلها فـى خلايا الدماغ.. ليس هذا فى اللغـة – وحدها – وإنما فى اللغة، وفى كل مهارة أو موهبة.. يمتلكها الإنسان. فسبحان الله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧﴾ [السجدة: ٧].

٧ - حركة العاطفة عند الإبداع الأدبى:

أما فى مجال إبداع الأدب فإن حركتها تكون عنيفة، على تفاوت بين المشـاعر عند إنشاء الرواية.. عنها عند إنشاء الشعر. تكون حركتها قوية جدًا فى الشـعر العظيم بحيث تبلغ سـتين درجة بالمئة أو أزيد (٦٠٪) وتهبط إلى خمسين بالمئة (٥٠٪) أو أقل فى القصة، ولكنها تهبط إلى ثلاثين بالمئـة فى الروايـة (٣٠٪)[1]. وبهذا.. يكون حظ العاطفة أكثر من ضعف حظ العقل فى الشعر. ثم يزداد حظ العقل قليلًا فى القصة، ثم يربو على حظ العاطفة فى الرواية. على هذا.. يكون التعبير فى الشعر العظيم أكثر تركيبًا وتغييرًا لترتيب الألفاظ، بعيدًا عن الترتيب الطبيعى البسيط – من درجـة ترتيبها فى القصة. وفى القصة يكون أكثر منه فى الرواية. وطبعًا يكون فى الرواية أكثر منه فى العلم ثم الفكر ثم النقد، سياسـة واجتماعًا وفلسـفة ونقدًا. بل إن جيشـان العاطفة فى الشعر يضع أمام العقل صورًا – تشـبيهات ومجازات وتشكيلًا جديدًا للأشـياء – لا يضع أمام العقل مثلها ولا قريبًا منها فى العلم والفكر والنقد، إذ يكاد العلم (ومثله الفكر) يكـون خاليًا من الصور.. من التشـبيهات، ومن الاسـتعارات، خاصة. ويكون خاليًا من ظهور الأشياء بتشكيلات جديدة.

٨ - مثلٌ على لغة الشعر:

وَلْنمثّلْ على لغة الشـعر ببيتٍ واحـدٍ: للدلالة على غنى التركيب فى الشعر، يقول الأخطلُ الأموى فى وَصف النساء الجميلات على الظغائن:

حَـثـوا الـمـطىَّ فوَلّتْنا رِكـابُـهُـمُ وفى الخُدورِ إذا باغْتَهما الـصور

(١) هذه.. نسب تقريبية، وليست صارمة، لأن النفس الإنسانية متموجة، لا تثبت على حال، حتى عند الشخص الواحد، وفى مجال الفن الواحد.

فى الشـطرة الثانية.. الترتيب البسـيط هو: «الصُّورُ فى الخدور، إذا باغتَها». ولكن ترى (بهذا الترتيب الذى قدمنا به المبتدأ (الصورُ) ثم جاء المتعلـق بالخبر (فى الخدور) ثم جاء المتعلق بالخبر (فى الخدور) ثم جاء الشـرط (إذا باغَمْتَهـا..) – ترى أن جمال الشـطرة.. ضاعَ، وأن إحكام التركيـب تفـكك، وأن الكلام أصبح نثرًا رديئًـا. ولكن فى حالة ترتيب الشاعر للشطرة.. جاء الكلام مُحْكمًا؛ فقد قدم متعلق الخبر (وفى الخدور) لأهميته، لأن النساء مسافرات، والشاعرُ يحبهن لأنهن مُنعمات. ويريد أن يسبق إلى ذهن المتلقى أن هؤلاء النسوة منعماتٌ، لا يمشين على أرجلهن وإنما هن علـى الظعائن، وفى الخدور أيضًا، أى: لكل منهن خدرٌ على ظهر الناقة يقيها من الحر والبرد، ومن نظرات المتطفلين، فهن منعماتٌ مصوناتٌ. ثم.. قدم الشـرط (إذا باغتهما) قبل المبتدأ (الصور) ليُشـعرك أنهن لسْـنَ سـوقيات يثرثرن مع الغادى والرائح، وإنمـا هن متعززات لا يكلمـن إلا من يهفـوا قبله إلى جمالهنّ. ثـم.. إن أصواتهنّ ناعمات، لأنّهُنَّ حرائرُ منعمات، فأصواتهنّ – كبُغام الظباء.

٩ - البنيَةُ العميقةُ، والبنيةُ الظاهرةُ:

أما البنية العميقة والبنية السطحية فى نظرية، تشو، كما اصطلح على تسميتهما الدكتور العمايرة.. فإنى لا أرى أن هذين المصطلحين.. دقيقان، وأدق منهمـا أن نقـول: البنية الخفية والبنية الظاهرة[1]. لأن تسـميتهما

(١) إن الترجمـة الحرفيـة، من لغة إلى أخرى، تضرّ بالمعنـى والدلالة، لأن كل لغة لها ألفاظها التى قد تحمل ظلالا لا تحملها الألفاظ التى تقابلها –مقابلة حرفية – من اللغة الأخرى. ثـم.. إن –العميق – حَفىّ؛ لأن العمق عامـل من عوامل الإخفاء. والكلمـة.. يمكن أن يتطور معناها. أو أن يضاف لها معنى جديد –إذا كان بين المعنيين «علاقة» ما. وإن – السطحى – ظاهر – أيضًا، لأن الشـىء السطحى.. مكشوف. والمكشـوف.. ظاهر، فكلمة (الظاهر) هنا.. أليقُ، وأقرب إلى التأثير الإيجابى. لأن كلمة –سطحى – تحمل ظلالا سلبية.

بالبنية العميقة والبنية السطحية يعنى أن البنية الأولى ذات تركيب عميق، أما الثانية فهى بسيطة ساذجة ضحلة الدلالة، مع أن البنية الثانية هى صورة ظاهرية عملية للبنية الخفية الداخلية المجردة.. غالبًا.. ولهذا.. فالتسمية التى اقترحتها هى أقرب إلى الصحة؛ فليس الفرق بينهما – غالبًا – أن الأولى أجود من الثانية، بل الفرق بينهما فرق مكان؛ فالأولى كامنة فى موضعها من الدماغ، والأخرى صيغة عملية منطوقة أو مكتوبة. ولهذا.. فلا مندوحةَ من أن نترجم (Deep) بالخفية و(Surface) بالظاهر.

ثم.. من حيثُ المعنى فلا جديد يعرضه هذان المصطلحان إذ هما يعيدان ما قيل سابقًا فى الرقم الأول. وهو أن البنية الخفية كما سميتها، هى الخلايا التى تستقبل اللغة، ثم يؤدى ورود اللغة إليها شيئًا فشيئًا إلى تخزينها وإلى نمو القوالب (القواعد والقوانين) فى هذه الخلايا شيئًا فشيئًا – هذه القوالب التى تقاس بها صحة اللفظ أو خطؤه، وتقاس بها صحة التعبير أو خطؤه كذلك؛ إذ كثيرًا ما يكون فيه انحراف – ما، عن قالب التعبير الخفى. لأن التطبيق والفعل يحملان مخاطرَ لا يحملها الكمون والسكون.

أما البنية الظاهرة.. فهى التجسيد العملى – المنطوق أو المكتوب – لما استقر فى هذه القوالب. وقد يكون مجرد استرجاع لما استقر فى تلك القوالب، وقد يكون «إبداعًا» يجرى على بنية هذه القوالب، ولكن بتشكيل جديد مبدع للمعانى والألفاظ، لأن هذه القوالب مرنة بحيث تسمح بالتدفق الجديد أو الفيض الإبداعى.. معنى وصورًا وتعابير، مع طريقة ضمّ للألفاظ، مُبدَعَةٍ، تتناسب مع عمق المشاعر وتلونها.

وقوله: «..فهو (الأداء) الوجه الظاهر المنطوق للمعرفة الضمنية الكامنة باللغة. ولكن هذا الوجه قد لا يحصل بينه وبين الكفاية تطابق تام،

فيكـون فيه انحراف (خطأ) ناتج عن عوامل مقامية سـياقية، أو ذهنية نفسية اجتماعية..الخ».

١٠ - تطابق البنية الظاهرة مع البنية الخفية - أو انحرافها:

..أقول فى قوله السـابق: هذا الأمـر تحدث عنه الجرجانى بقوله: «... فلسـت بواجد شيئًا يرجع صوابه -إن كان صوابًا - وخطؤه - إن كان خطأ - إلى (النظم)، ويدخل تحت هذا الاسـم، إلا وهو معنى من معانـى النحو قد أصيب بـه موضعه ووضع فى حقه، أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه، واستعمل فى غير ما ينبغى له، فلا ترى كلامًا قد وصف بصحة نظم أو فسـاده، أو وصف بمزية وفضل فيه إلا.. وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل - إلى معانى النحو وأحكامه، ووجدته يدخل فى أصل من أصوله، ويتصل بباب من أبوابه»[1].

أقـول: إن اعتبار الجرجانـى النظم - صحةً وفسـادًا - راجعًا إلى معانى النحو، أى راجعًا إلى القالب الذى تشـكل فى خلايا الدماغ التى تخص اللغة - ثم.. وضعه النحاة على صورة قواعد، مسـتقاة من الكلام الفعلـى يُماثل هذا الذى سماه تشـو - البنية الخفية، لأن معانى النحو راسخة فى الخلايا المذكورة آنفًا[2].

(١) دلائل الإعجاز، ٨٥.

(٢) والجرجانـى - كما أرى - لا يعنى (بمعانى النحـو).. المبتدأ والخبر، والفعل والفاعل والمفعول...الخ، وإنما يعنى.. المعانى النفسية-العقلية التى يعبر عنها بالألفاظ، فى سـياق.. ويدلل على صحتها، أو فسـادها - بصحة التركيب، أو فسـاده - متضمنًا حركات الإعراب فى العربية الفصحى - فليسـت معانى النحو (وهى غير مصطلحات=

وصحة النظم وفســاده ترجعان إلى معانى النحو أى: إن صحة النظم وفساده إنما هى الصورة القولية الظاهرة للصورة الخفية، أى: هى الأداء، كما عبر عنه تشو، (الاختلاف هو فى التعبير وليس فى المعنى المركزى).

ومعانى النحو

(فى حالة الخفاء) هى الملكة الراســخة فــى خلايا اللغة الكائنة فى الدماغ، كما أسلفنا. والجرجانى، لكى يوضح فكرته يورد نصًا -نسجله - تاليًا - مثالًا شــعريًا على جودة النظم، ثــم بيتًا واحدًا للمتنبى على فساد النظم - كما يأتى:

٢٩٧ - ومعلوم أن سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة، وأن سبيل[١] المعنــى الذى يعبر عنه ســبيل الشــىء الذى يقع التصويــر والصوغ فيه، كالفضــة والذهب يصاغ منهما خاتم أو ســوار. فكمــا أن محالًا، إذا أنت أردت النظــر فى صوغ الخاتم، وفى جودة العمــل ورداءته، أن تنظر إلى الفضــة الحاملة لتلــك الصورة، أو الذهب الذى وقع فيه ذلك العمل وتلك الصنعة [٢] = [٣] كذلك محال إذا أردت أن تعرف/ مكان الفضل والمزية فى الــكلام، أن تنظر فى مجرد معناه = وكما أنا لو فضلنا خاتمًا على خاتم، بــأن تكــون فضة هذا أجودَ، أو فصه أنفــسَ، لم يكن ذلك تفضيلًا له من

=النحــو) إلا القواعــد التى يحكم بموجبها على أن هذا التقديم للفاعل -مثلًا - جائز أو غير جائز، وأن هذا الجمع يناســب الفعل الذى سبقه أولا يناسبه..الخ ثم..قد يعبر عن ذلــك بمصطلحات النحــو، أحيانًا، كأن يقال: جاء هذا التعبــير.. صحيحًا، أو جاء.. جميلًا، أو جاء.. خاطئًا، لأنه أخر فيه المبتدأ وقدم الخبر...الخ.

(١) الجرجانى - دلائل الاعجاز - ٢٤٥ - ٢٥٦ . ٢/٨٥.

(٢) «ذلك» ساقطة من المطبوعة.

(٣) السياق: «فكما أن محالًا... كذلك محال»، وإنما باعد الجرجانى بينهما.

حيــث هو خاتم = كذلك ينبغى إذا فضّلنا بيتًا على بيت من أجل معناه، أن لا يكون تفضيلًا له من حيث هو شعر وكلام. وهذا قاطع، فاعرفه.

٢٩٨ – واعلم أنك لســت تنظر فى كتاب صُنّف فى شــأن البلاغة، وكلام جاء عن القدماء، إلا وجدته يدل على فساد هذا المذهب، ورأيتهم يتشددون فى إنكاره وعيبه والعيب به.

وإذا نظــرت فــى كتب الجاحــظ وجدته يبلغ فى ذلــك كل مبلغ، ويتشــدد غاية التشــدد، وقد انتهى فى ذلك إلى أن جعل العلم بالمعانى مشتركًا، وسوّى فيه بين الخاصة والعامة فقال: «ورأيت ناسًا يبهرجون أشــعار المولدين، ويستســقطون/ من رواها، ولم أرَ ذلك قطُّ إلا فى راويةٍ غــير بصير بجوهر ما يــروى، ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد ممن كان، وفى أى زمان كان. وأنا سمعت أبا عمرو الشــيبانى، وقد بلغ من اســتجادته لهذين البيتين ونحن فى المســجد الجامع يوم الجمعة، أنْ كلّف رجلًا حتى أحضره قرطاسًا ودواة حتى كتبهما. قال الجاحظ: وأنا ازعــم أنّ صاحب هذا البيتين لا يقول شــعرًا أبــدًا، ولولا أن أُدخل فى الحكومة بعض الغيب لزعمتُ أن ابنه لا يقول شعرًا أيضًا. وهما قوله:

(لا تحسَبنَّ الموتَ موتَ البلى وإنما الــموتُ سُؤالُ الرجــالْ)
(كلاهمــا مــوتٌ، ولــكنّ ذا أشدُّ من ذاكَ على كلِّ حالْ)[1]

ثم قال: وذهب الشــيخ إلى استحسان المعانى. والمعانى مطروحة فى الطريق، يعرفها العربى والعجمىّ، والقروىّ والبدوىّ، وإنما الشــأن فى إقامة الوزن، وتخيُّر اللفظ، وسهولة المخرج، وصحة الطبع، وكثرة الماء، وجودة السبْك. وإنما الشعر صياغة، وضرب من التصوير.

(١) دلائل الاعجاز – ٣٥.

مثل على صحة النظم[1]

وصحة النظم وفساده ترجعان إلى معانى النحو اى: أن صحة النظم وفساده إنما هى الصورة القولية الظاهرة للصورة الخفية، أى: هى الأداء، كما عبر عنه تشو، (الاختلاف هو فى التعبير وليس فى المعنى المركزى)، ومعانى النحو (فى حالة الخفاء) هى الملكة الراسخة فى خلايا اللغة الكائنة فى الدماغ، كما أسلفنا. والجرجانى، لكى يؤكد نظرته، يضرب مثلًا على صحة النظم، وآخر على فساده. ومن أمثلته على صحة النظم التى تعنى اتفاق التعبير مع معانى النحو، أى: اتفاق البنية الظاهرة. مع البنية الخفية – قول البحترى:

«.. بلوْنا ضرائبَ من قد نرى ... هو المرءُ أبدتْ له الحادثا
تنقّلَ فى خُلُقى سُؤْدَدٍ ... فكالسيفِ إنْ جئتَهُ صارخًا
فما إنْ وجدنا لفتح ضريبا ... تُ عزمًا وشيكًا ورأيًا صليبا
سماحًا مُرَجًّى وبأسًا مهيبًا ... وكالبحرِ إن جئتَهُ مُسْتثيبًا»

ثم.. يوضح جوانب الجمال فى الأدبيات فيقول: «أفلا ترى أن أول شىء يروقك منها قوله: (هو المرء أبدت له الحادثات) ثم قوله: (تنقل فى خلقى سؤدد) بتنكير السؤدد، وإضافة الخلقيين إليه. ثم قوله: (فكالسيف)، وعطفه بالفاء مع حذفه المبتدأ، لأن المعنى.. لا محالة: فهو كالسيف، ثم .. تكريره الكاف فى قوله: (وكالبحر). ثم .. أنْ قرن إلى كل واحد من التشبيهين شرطًا، وجوابه فيه. ثم.. أن أخرج من كل واحد من الشرطين.. حالًا على مثال ما أخرج من الآخر، وذلك قوله:

(١) دلائل الإعجاز – ٢٥٥، ٢٥٦.

(صارخًا) هناك، و(مستثيبًا) ها هنا؟ لا ترى حُسنًا تنسبه إلى النظم ليس سببه ما عددت، أو ما هو فى حكم ما عددت». أقول [ق][1] أى: ليس سببه إلا إتيان الكلام، حسب قوالب النحو الراسخة فى الدماغ، المتمثلة – هنا – بالتقديم والتأخير، والحذف والذكر، والتعريف والتنكير .. الخ. وهذه كلها.. معانٍ نحويةٌ، أى: بِنْيَةٌ لُغوية ظاهرة لبنية لغوية خفية (كامنة، ومتقولبة، فى الدماغ). على أنّ هذه البنية الخفية قد رَجَّها الانفعال الفنى الذى تعاونت فيه كل بنية الشاعر الحية، فَشُكِّلت بهيئة قادرة على إنتاج التعبير الأدبى، ومطاوعة اهتزازات وجدان الشاعر، وتموجاته.

فساد النظم:

ومن أمثلته على فساد النظم أى: انحراف القول الظاهرى – البنية الظاهرية – عن البنية الخفية، أى: انحراف الأداء عن الملكة (الفرق فرق اصطلاحات وليس فرق حقائق) – قوله: مثال ذلك قول المتنبى:

وفاؤُكما كالرَّبْعِ أشجاه طاسِمُهْ بأن تُسْعدا والدمعُ أشفاهُ ساجِمُهْ

أقول: ومع أنه لم يحلل البيت لكنه أورده مثلًا على فساد النظم. فلنورد ترتيب البيت دون انحراف (وفاؤكما بأن تسعدانى – أيّها الصديقان – وتَهْتمّا بأمرى كالربع.. كلما كان أكثرَ عفاءًا كان أكثرَ جلبًا للحزن، كما أن الدمع يشفى من الحزن إذا كثر انهماله).

وأقول، بمناسبة الحديث عن اعجاز القرآن – بأساليب متنوعة كما مر:

---

(١) [ق] – رمز للمؤلف : عودة الله القيسى.

– مـن الشـاذ الموجع أنّ رجـلاً عميلًا للسـفارة الإسـرائيلية.. كتب، مرة، ينكر على العرب أنهم يذهبون يقلدون فى كتابة –المقالة – الغـرب، وهم –عندهم – المقالـة النموذجية، منذ ألف وأربع مئة سـنة، ونَيّفٍ[1] – أتدرى – ما هو دسّ السُّـم فى الدسم–؟ أتدرى ما هـذه المقالة النموذجية؟ إنها.. (سـورة الطـلاق). إنها تحتوى على مقدمـة وعرض، وخاتمة. وهل المقالة غير ذلك..!! هكذا .. يدعى، ويهرطق هذا العميل–!

– إن هذا الرجل المبدع (بل المتبدع) – الآتى بما لم تستطعْهُ الأوائلُ – كمـا قـال أبو العلاء المعرى (– رحمـه الله تعالى) يريد من وراء ذلك خيرَ الناس!! يريد أن يسـلل إلى من تخدعهم الكلمة الحلوة عن المرارة السـارية فى عروقهـا.. أن القرآن الكريم – كتـاب كغيره من الكتب، يمكن النسْجُ على منواله، والفعلُ كأفعاله–!، والقرآنُ.. معلوم بالضرورة أنه لا يمكن تقليد جُمَلِهِ (وإنما يمكن اقتباس الجملة بحروفها فحسـب) فكيف بإمكان تقليد أسـلوبه ومَنهجه فى عرض ما يعرض – والجملة.. بسيطة بالقياس إلى الأسلوب والمنهج – المركبين؟!

– إن هذا الرجل يريد ما يريده أسـياده من التقليل من شـأن القرآن الكريـم–! وأنه مجـرد – كتاب – كغيره من الكتـب.. يمكن تقليده، والـذى يمكن (تقليده) يمكـن مجاراته–! ذلك .. من أجل أن يَقْدح فى النفس المسلمة الفتور نحو القرآن، ولكن يأبى الله تعالى.

إذن – القـرآنُ الكريـم، – عنـدى – يمكن الاسـتفادة من معانيه، وأحكامه، ومـن مبادئه، وتوجيهاته، وروحـه، ويمكن الاقتباس منه.

(١) يمكـن أن تقدم «نيف» على العدد، وهى عادة القدامى–أو – تؤخر، وهى عادة المعاصرين.

ولكن، يستحيل تقليده، واستحالة تقليده تعنى استحالة استفادة البشر من أسلوبه، فى الجملة، والفقرة، وتتابع موضوعاته، ومنهجه فى عرض قضاياه.

– أما الذين يَدّعون قدرة البشر على الاستفادة من هذا الجانب الإعجازى فى القرآن.. فهم فريقان: – فريق.. حُرِمَ من العقل القادر على –التحليل – فيأخذ القضايا مُسَلَّمًا بها، أو – بغير تدبر وتفهم، حَسْبُهُ أنه فهمها، (أى القضايا) وبإمكانه أن يلقيها إلى الناس، أو – أن يفرغها على الورق. والفريق الثانى.. هم الدراويش – الذين يعتقدون أنك إذا قلت: (القرآن الكريم.. لا يمكن الاستفادة من جانبه الإعجازى اللغوى) فأنت تنتقص القرآن – حاشاه – بل أقول: الحق أنك بهذا القول تنظر اليه فى كماله البلاغى (= الإعجازى) الذى لا يستطيع البشر أن يصعدوا إليه. ومن أين –وكيف يصعدون، وهم لم يُعْطَوْا الاستعداد أو القدرة على هذا الصعود؟[1] – هم يَصِلون إلى كمالِهِ البلاغى.. إذا استطاعوا أن يصعدوا إلى جو السماء، وأن يصطفوا فيه – كما تصطف الطير، قال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ (الملك–١٩).

– معنى الآية أن الذى أوْدَعَ فى الطير القدرة على الاصطفاف، فى جوِّ السماء، وعلى قبض أجنحتها، من دون أن تسقط على الأرض هو الذى خلق هذا الطير – وهو الله تعالى. وإذْ أودع فى الطير هذا التحليق

---

(١) وبهذا المفهوم الذى يجعل استعداد البشر قاصرًا –أصلًا – عن بلاغة القرآن .. يمكن توجيه – الصرفة – التى قال بها المعتزلة به، فهى ليست –صرفًا – عن قدرة، فبلاغة البشر، هى فى حدود ما أعطوا من استعداد. ومن هنا .. كان رأى المعتزلة باطلا، لأنه جعل الصرفة، صرفًا عن مجاراة القرآن – خاصة.

فى السماء – ولم يُودعه فى الإنسان (ولا فى مخلوقات لا تحصى) فإن الإنسان يستحيل أن يُخَلِّق فى السماء، بوسائل شخصية. ولكنْ، قد يُحلِّق (كما يحلق اليوم) بوسائل صناعية، مضافةٍ لما أودع الله تعالى فى ذاته. وإذن – أما ترى أن هذا العميل يريد أن يدس السُّمّ فى الدسم؟

١١ - اختلاف ترتيب الألفاظ يؤدى إلى اختلاف المعنى:

وقول تشو الأخير الذى أورده الدكتور العمايرة (بأنه قد ينطق بالبنية السطحية المتكلم حسب ترجمة عمايرة لها).. مقدمًا جزءًا من الجملة النواة على الآخر .. وهذا كله (حسب تعبير العمايرة) لا يقدم ولا يؤخر فى المعنى الذى فى ذهن المتكلم أو فى الكشف عنه[١].

أقول: قد تَعْذُرُ تشو بهذا القول بعض العذر –لا كله – لأن تغيير ترتيب الألفاظ فى الجمل فى اللغة الانجليزية قليل، فهى، على الأغلب، ذات قوالب جامدة (أنماطية)، خلافًا للغة العربية ذات القوالب المرنة (النماذجية) غالبًا[٢]، ولكن الحق الذى لم يَعِهِ –تشو – أن تغيير الترتيب يؤدى إلى تغيير فى معنى التعبير، وإن لم تؤثر فى (المعنى المركزى) أو الغرض، كما سماه الجرجانى أو المعنى (النواة) كما سماه تشو.. أقرأ ما يقوله الجرجانى عن هذا التغيير، الذى يقول: (لا يكون لإحدى العبارتين مزية على الأخرى حتى يكون لها فى المعنى تأثير لا يكون لصاحبتها)[٣].

---

(١) فى نحو اللغة وتراكيبها، ٥٩

(٢) انظر: كتابى (رُؤًى – نحوية وصرفية – تجديدية) –مرجع سابق – ففيه بحث مستوفٍ عن الجمل الأنماطية – والجمل النماذجية. والفرق بينهما، ١/٨٦ . جـ٢/ ١٥١ – ٢١٧.

(٣) دلائل الإعجاز، ٨٧.

إذن – الجرجانـــى كان أكثر وعيًا – من تشـــو، ومن العمايرة إلى أن تغيير ترتيب ألفاظ الجملة (وهو ما سماه تشو التحويل) يؤدى إلى تغيير فى المعنى، أو – فى تأثير المعنى على المتلقى – تأثيرًا ملحوظًا.

– والآن.. نورد مثالاً – للجرجانى – على أن اختلاف ترتيب الالفاظ يؤدى إلى اختلاف المعانى.

– ثم .. أقوالاً لى – باتجاه هذه المعانى ...

مرونة العربية[1]:

العربيـــة من المرونة بمكان كبير، بحيث يمكـــن – التقديم والتأخير – فيها، فى الجملة الواحدة، أو السياق الواحد الذى يتكون من جملتين – يمكـــن ذلك.. لا عبثًا، وإنما لدواعى الدقة فى المعنى، بحيث يترتب المعنى على الورق، أو فى اللفظ، حسب ترتيب المعانى فى النفس – كما يقـــول الإمام[2] – عبد القاهر الجرجانى (ت ٤٧١ هـ) رحمه الله. ونقدم لتوضيح ذلك ستة أمثلة – كالآتى:

المثال الأول:

الله تعالى قـــال: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾(البقـــرة – ١٧٩)، وقـــد ناقـــش هـــذه العبـــارة الإمـــام الجرجانى. وأنا أُحِلُّ كلامى بدل كلامه، نظرًا لصعوبة فهم كلامه على المعاصرين – لا لصعوبة فى اللغة – قديمًا (فى القرن الخامس الهجرى)

---

(١) من كتابى [رؤى – نحوية وصرفية – تجديدية] جـ٤/ ١٣ – ١٤٢.

(٢) الإمـــام الجرجانـــى – دلائـــل الإعجاز – ٥٥، ٥٦. نقلاً عـــن كتابى: (العربية الفصحـــى) – ٥١٥٢. ففيـــه مقارنة بين فلســـفة اللغة عند الجرجانـــى، وابن خلدون – وناحوم (= نعيم) تشومسكى.

بل .. لأن الجرجانى كان يأخذ – بأسلوبه – بعلم الكلام. وعلم الكلام يؤدى –أحيانًا – إلى اعتياص العبارة، والمعاظلة فى الكلام. وإلا .. فالجاحظ العظيم أقدم من الجرجانى، (توفى الجاحظ – ٢٥٥ هـ) بقرنين كاملين، ومع ذلك .. فكلامه يسيل – سيلانًا – كالذهب المصهور، وهكذا نأتى بالتحليل لهذه العبارة القرآنية.

– ولكن، نقدم لها بما يقصده الجرجانى من عبارة (معانى النحو) – كما يأتى:

معانى النحو - فى رؤية الجرجانى:

ثم.. إن الذين درسوا (دلائل الاعجاز) لم يتضح لهم، أو لم يوضحوا – بجلاء – ماذا كان الإمام الجرجانى يقصد بمعانى النحو وفروقه وأحكامه؟ أقول: الحق أن هذا الناقد – البلاغى الكبير.. لم يخلُفْهُ أحدٌ على منهجه هذا القويم – ما عدا الزمخشرى – رحمه الله – الذى أفاد فى تفسيره (الكشاف) من منهج الإمام الجرجانى، إذ أبدى نظرات ذكية، فى إعجاز القرآن اللغوى. أجلْ لم يخلُفْهُ أحدٌ. لأن النقد العربى (والفكر.. عامة) دخل، بعد الجرجانى فى غيبوبة، لم يُفق منها حتى اليوم. وإن كانت إضاءات متناثرة.. قائمةً – اليوم.

الإمام الجرجانى لم يقصد بمعانى النحو أن يأتى الكلام مرفوعًا ومنصوبًا ومجرورًا، ومجزومًا، حسب قواعد الإعراب المعروفة.. وإنما قصد أننا نستطيع أن نفسر جمال الشعر، وإعجاز القرآن بالاستفادة من مصطلحات النحو، باعتبارها وسائلَ دالّةً كما تدلّ مصطلحات البلاغة، فالتغيير – عنده – لا يكون جميلًا، لأن الخبر – مثلًا – تقدم على

المبتدأ – إطلاقًا أو لأن الفاعل تقدم على الفعل (فأصبح في عرف النحاة مبتدأً ....) .. على إطلاق القول. وإنما الكلام يكون جميلًا.. لأن الخبر تقدم على المبتدأ في موضع، تجمل العبارة فيه بهذا التقديم.

– كما أن التشبيه أو الاستعارة (وهذا .. هو رأيي، ولم أجده في كتاب) لا يجملان، أينما وقعا وإنما يجملان، إذا وقعا حيث يجب أن يقعا، إذ ليس المجاز أعلى من الكلام الموضوعي الذي لا مجاز فيه.. دائمًا. وإلا .. لكان القرآن الكريم كله.. قائمًا على المجاز – وهذا.. غير كائن – فدلّ هذا على أن المجاز يجمل في موضعه الذي يستدعيه، وأن الحقيقة تجمل في موضعها الذي يستدعيها. والقرآن – المبني على الحقيقة، أحيانًا، وعلى هذا فالمجاز لا يتفاوت نظمُهُ، ولا يتفاوت جمالة – فالمجاز.. قبيح، في موطن يستدعي الحقيقة.. والحقيقة، في موطن يستدعي المجاز، غير معبرة.

وعلى هذا .. فإذا رأى الإمام الجرجاني أن عبارة: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ (البقرة – ١٧٩) أبلغ من القول المأثور (القتل أنفى للقتل).. فما ذاك – لأن قُدِّمَ (متعلق الخبر «ولكم» على المبتدأ «حياة») – أينما وقع هذا التقديم والتأخير. بل – لأن تقديم متعلق الخبر – هنا – جاء أبلغ من تقديم المبتدأ، كأن يقال: (حياة لكم في القصاص) – أو (حياة في القصاص لكم). أولًا – لأن تقديم النكرة (حياة) – ضعيف هنا، لأن النكرة –هنا – غير مفيدة. ولأن مجيء متعلق الخبر (لكم) بعدها، لا يعطيها بُعدًا نفسيًّا مريحًا يستدعي هذا التقديم، ولا بُعدًا في توسيع المعنى، ولا تستقرّ النفس

إلا عندما تأتى عبارة (فى القصاص) – وثانيًا: لأن القارئ لا يتضح له مدلول واضح من قراءة العبارة، أو مدلول ذو معنى وقيمة فإن نفسه تكاد تكفّ عن متابعة المعنى (أو العبارة) – وتزهد من المضي

فى القراءة.. وقريب من هذا، ولكن، إلى أحسن، العبارة الثانية المقترحة (حياة فى القصاص لكم).

.. أما القول المأثور (القتل أنفى للقتل) – فهو يسد النفس من بدئه، إذ لا يرتاح المرء أن يسمع أول ما يسمع كلمة (القتل) ثم هى (أعنى العبارة كلها) لا تخلو من غموض، فلا بد من تفسير لها حتى يتضح معناها، والمقصود منها – طبعًا – هو أن قتل القاتل «يقلل حالات القتل، لأن الذى يفكر فى قتل آخر، ثم تسيطر عليه فكرة أنه مقتول بمن قتله.. يتراجع – غالبًا – عن الإقدام على القتل».

أما عبارة القرآن ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ – فهى تفتح النفس من بدئها: «ولكم».. ! وهل القسم الأعظم من حياة الإنسان إلا سعى نحو «لكم» لأن الإنسان يقبل على «لكم» فى المال والعيال والمنصب، والمرأة الصالحة الجميلة (كما أن المرأة تقبل على ذلك، وعلى الرجل الصالح الوسيم) – وباختصار.. يُقبل على «لكم» فى كل شىء يمثل اللذة والمتعة والمنفعة (حلالًا عند قوم، أو حرامًا عند آخرين، أو مختلطًا فيه الحلال والحرام عند قوم بينَ بينَ) وحتى الاستقامة، وما يتصل بها من صلاة وصيام، وزكاة وحج.. فإن المرء يريد من ورائها اللذة والمتعة المدخرتين له فى الجنة، أى – يريد من ورائها «لكم»!

.. «ولكم» هى على نقيض «عليكم» التى تسد النفس، ويفرّ منها الإنسان، لأنها -غالبًا - ترمز إلى الألم والأذى. وإن كان الإنسان يحتمل الألم قليلًا.. لمتعة أكبر، مادية أو معنوية. كما فى الجهاد، والاستشهاد.

.. ولا أريد أن استرسل -من أجل الاختصار - وإنما يكفى أن أشير إلى أن كلمة « حياة » فى عبارة القرآن.. يكون لها معنى واضح، وتكون كلمة يستقر عندها المعنى، فتحس أنها كالنهاية المتوقعة فى النغمة الموسيقية التى تشعرك بانتهاء الموجة الموسيقية. (طبعًا - هذا معنى تحليل الإمام الجرجانى، مترجمًا إلى لغة غير معقدة[1] - (وليس هذا نص كلامه) - لأن فى أسلوبه سِنْخًا (سنخًا واحدًا) من الجفاف والتعقيد.

.. ومع أن عبارة القرآن هذه تحتاج إلى توضيح.. غير أنها اقرب إلى الأفهام من عبارة القول المأثور. ومعناها .. أن القصاص يؤدى إلى الحياة، لأن الذى يفكر فى القتل - (كما قلنا فى عبارة - القتل أنفى للقتل-) .. وهو يعلم أنه سيقتص منه بقتله.. يحجم غالبًا، عن الإقدام على قتل خصمه. ثم.. تظل كلمة «حياة» باعثة على إراحة النفس، واستبشارها، على عكس كلمة «القتل» التى تنقبض لها النفس، وتكمئدّ.

المثال الثانى:

إن المثال الأول.. كان عن بلاغة التقديم والتأخير التى تكون -أحيانًا - (لا دائمًا) عندما يتناسب ترتيب الكلام مع ترتيب المعانى فى النفس. من غير أن يفسد جوهر المعنى، لو انعدمت الحركات. فى مثل هذا

---

(١) لأن لغة أصحاب علم الكلام.. كانت - معقدة - غالبًا - تعتاص فيها العبارة - وليس هذا التعقيد بسبب القدم، لأن الجاحظ العظيم كان قبل الجرجانى بأزيد من قرنين، ومع ذلك، كانت عبارته متدفقة، سهلة، سلسة -كما ذكرنا فى المتن.

الترتيب. أعنى: أن تقديم المؤخَّر، فى الأصل . وتأخير المقدم، فى الأصل، لا يكون بليغًا دائمًا.

– وهذا المثال الثانى فهو قوله: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [البقرة – ١٣٢] – وهذا المثال الثانى.. يفسد فيه جوهر المعنى، لو انعدمت الحركات – خلافًا للمثال الأول – كما سنرى – تاليًا:

– لقد أخر القرآن يعقوب –عليه السلام – وهو فاعل كإبراهيم –عليه السلام – أخَّرهُ القرآنُ عن المفعول[1] (بنيه).. وبذلك بانت مزية النظم: إذ لو قيل: (ووصى بها إبراهيم ويعقوب بينهما) لكان فى التعبير غَمْطٌ لحق إبراهيم – عليه السلام–. فإبراهيم أبو الأنبياء ويعقوب.. حفيده. فليس من حفظ المقامات أن يتبع يعقوبُ إبراهيمَ مباشرةً، وإنما من حفظ المقامات أنْ يَؤخَّرَ الحفيدُ بعد المفعول. وبعد أن يتمّ المعنى، وأن يُقدّم الجدّ قبل المفعول. وبهذا يكون التعبير.. عادلًا، لأنه وضع كلًا من الرجلين فى موضعه. ومن هنا جاء جمال التعبير، لأنه اتبع منهج العدل.. والعدل توازن فى نظام الأشياء. والتوازن جمال لا يعلوه جمال. إن الأخذ بالتعبير البسيط فى سورة (العصر) كان سبب الجمال والروعة[2]. وإن التقديم والتأخير فى آية (البقرة) كان سبب الجمال والروعة لأن كلًا من التعبيرين وقع موقعه الملائم؟.

(١) فضلت أن أكتفى بكلمة (المفعول) من غير أن يلحقها (به) –لأن اصطلاح النحاة هذا ليس دقيقًا، (فالمفعول به) هو الذى يفعل به. فإذا قيل: (سفد ذكر الحمام الحمامة) كانت الحمامة (مفعولًا به) – حقًا. أما إذا قيل: قطف المزارع الثمر (فالثمر) ليس مفعولًا به. وإنما هو (مفعول). فحسْبُ.

(٢) انظر: لاحقًا – المثال الرابع: البلاغة قد تكون فى الترتيب البسيط للعبارة.

– بـل .. أرأيت أنه لولا الحـركات – هنا – لالتبس المعنى، أو .. فسـد، فلو جاء (سَبْكُ) العبارة بلا حركات، ولكن، على نفس الترتيب الذى جاءت عليه (وكلماتُها على أواخرها الحركات الملائمة) [كما هو فى الترتيب السـابق القرآنى] أجَلْ.. لو جاء بلا حركات لفسد المعنى، لأن المعنى سـيكون: (ووصى بها إبراهيم بنيه – ووصى بها إبراهيم يعقوب كذلك). وليس هذا المعنى هو الذى أراده القرآن الكريم. وتحريف المعنى أو.. فسـاده.. خلل – والخلل.. ضد التـوازن – فالخلل.. ضد العدل، وضد العدل.. ظلم؟ والظلم، أقبح.. ثم .. إننا لو رتبنا هذه العبارة الترتيب البسـيط لَفُقِدَ العدلُ، فاختل التوازن. وباختلال التوازن يذهب الجمال. ويحل محله خلل، أو .. قبح. إن الترتيب البسيط يجعل يعقوب يأتى، بعد إبراهيم، مباشـرة. وبهذا لا تُحفظ الرتبة، فيكون الخلل. والترتيب البسيط يكون هكذا: (ووصى بها إبراهيم ويعقوب – بنيهما).

النتيجة: (الجمال فى التقديم والتأخير – أحيانًا):

– أرأيت أن التقديـم والتأخير، فى هذه العبارة القرآنية أعطاها من الجمال ما لا يكون فى الكلام، لو جاء الكلام حسـب الترتيب البسـيط للـكلام، من غير تقديم أو تأخير، وبهذا الترتيب البسـيط لو كان تفقد جمالها كما ترى.

– وذاك المثال الأسبق أعني، قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ لا تبـدو فيـه أهمية حركات الإعـراب مـن حيثُ الدلالـة على المعانـى. ولكن، تبـدو فيه أهمية حركات الإعراب، من حيثُ إنها أعطت العربية الفصحى (مرونة) فى

التقديم، والتأخير، بحيثُ تترتب الألفاظ على الورق، أو فى المشافهة، حسب ترتيب المعانى فى النفس.. وهذا أوجز استعمال للغة، وأبلغ استعمال لها. (ولكن، لا يوجد مثله -وبنفس المرونة - فى كل اللغات الأخرى، لافتقارها إلى حركات الإعراب) [1].

المثال الثالث: (حول مرونة العربية - والحركات للسواكن، واطراد النسق)

- ولكن هذا المثال السابق.. تبدو -فيه - أهمية -حركات الإعراب - بدوًا واضحًا - بحيث لا تجارى، العربية الفصحى - به - لغة أخرى، على الإطلاق - فهو أحد «تكنيكات» البلاغة العالية.

- وهذا المثال السابق هو قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة - ١٣٢].

عبارة: (أكلونى البراغيثُ):

- ثم .. أبْعَدُ من ذلك من (فصحى النثر) عبارة البدوى الذى حل ضيفًا على صديق له، فى قرية، فنهشته البراغيث - التى لم يَعْتَدْ على نهشها، فقال: (أكلونى البراغيث).

.. وأنقل ما كتبتُهُ عنها فى كتابى: (العربية الفصحى...)[2] - مع فائدة (مقتضبة)، أنقلها من كتابى نفسه فيها مقارنة مختصرة عن التنغيم فى الإنجليزية وما يغنى عنه، وزيادةً، فى العربية،

(١) ملاحظة: لقد كانت اليونانية القديمة - معربة. ولكن اليونانية الحديثة.. فقدت الإعراب.

(٢) العربية الفصحى - ٦٢ - ٧١.

عن طريق التقديم والتأخير – التى لا تستطيعه لغة أخرى غير العربية، بسبب افتقار اللغات الأخرى إلى الإعراب. [سأورده – لاحقًا – تحت عنوان: (الكاتب خلط بين نوعين من التعابير).

المثال الرابع: البلاغة.. قد تكون فى الترتيب البسيط للعبارة

تكون البلاغة العالية فى نظم الكلام (-ترتيبه) حسب الترتيب البسيط -أحيانًا – أى: يأتى فعل ثم فاعل ثم مفعول. وقد تكون فى نظمه بطريقة يقع فيها التقديم والتأخير -كما سلف – فإذا قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١﴾ [النصر-١]، فإن الكلام تَرتّب ترتيبًا بسيطًا: (الشرط «إذا» ثم الفعل «جاء» ثم الفاعل «نصر الله»، ثم جاء الجواب: فسبح)، فهذا ترتيب بسيط. ولكنه الغاية فى الروعة، أولًا – لأن هذا الترتيب البسيط، جرى على أساس تساوق المعانى وترتيب – تأثيرها – فى النفس البشرية. (أقول: ترتيب تأثيرها) لأن الكلام ليس نابعًا من النفس البشرية وإنما هو كلام الله تعالى.

المثال الخامس: العربية تعتمد الحركات للتفريق – أحيانًا

– الدكتور عمايرة يرى أن العربية تفتقر إلى التنغيم -خلافًا للإنجليزية – التى تهتم بالتنغيم. وإنى أوضح الأمر -بثلاثة موضحات – تُبيِّنُ أن العربية مستغنية عن التنغيم، كثيرًا.

الأول: أن العرب أساسًا اعتمدوا على اللغة المنطوقة (لا كما يقول المؤلف) لأن الكتابة، أصلًا، كانت شِبْهَ معدومة عند العرب قبل الإسلام. ومن المعروف أن اللغويين جمعوا معظم اللغة من الفصحاء فى المدن والبادية، من خلال المشافهة. من خلال الصوت – والصوت.. بطبيعته تنغيم.

والثانـى: أن الغربى يلجـأ إلى – التنغيم – للتمييز بين معنى وآخر للتركيـب الواحـد. لأن اللغة الانجليزية – مثـلاً – لغة نمطية. أى: جامدة التركيب.. غالبًا. فليس أمام الغربى إلا التنغيم. ليجعل الجملة الواحـدة تعبر عـن غير معنىً واحدٍ. أمّا العربـى فأمامه للتعبير الواحد أكثـر من صياغـة واحدة. وذلك يجعله يسـتغنى – إلى حد ما – بتنوع الصياغـة عن تنويع التنغيم. ولا شـك أن جمود التعبـير وتنوع التنغيم قصـور فى اللغة. وأن تنوع الصياغة للتعبير الواحد يُعَدُّ غنىً فى اللغة. عندما يعبر كل تنوع عن ظلال للمعنى تختلف عما فى الوضع الآخر ذى المعنى المختلف. ولو قليلاً.

خذ مثلًا فى الانجليزية هذه الجملة:

If Jim Hadn't Lent Me The Money. I Wouldn't Have Been Able To Buy The Car.

فأنـت لا تسـتطيع أن تقدم (Jim) علـى (IF) ولا (hadn't) على (Jim) ولا (the money) على ما سبق. ولا (to buy the car) على (I wouldn't).

بينما كل هذا.. ممكن فى العربية. نقول: (إذا – جـم – لم يقرضنى النقود.. فلن أكون قادرًا على شراء السيارة). ونقول: (إذا لم يقرضنى – جـم..) أو (جـم إذا لم يقرضنى...) أو (النقود إذا لم يقرضنيها جم فلن أكون قادرًا على شراء السيارة.. أو – لن أكون قادراً على شراء السيارة إذا لم يقرضنى – جم).

أهـذه اللغة التى هى بهذه المرونة الفائقة.. أفى حاجة إلى أن تعتمد علـى التنغيم اعتمـادًا كبيرًا؟ ثم .. إن كل تغيير فـى التعبير يؤدى إلى

تغيير فى المعنى. حسب نظرية عبد القاهر الجرجانى فى -النظم - أى: تغيير ترتيب الألفاظ فى العبارة، هو المقصود بالتغيير، حسب ترتيب المعانى فى النفس.

والثالث: أن التنغيم المتنوع للعبارة الواحدة فى الإنجليزية.. جعل فيها شرخًا بين المنطوق والمكتوب، لا يمكن رَأْبَهُ[1]، لأن حروف كثير من الكلمات جاءت بناءًا على تنغيم واحد، وأضحت مفارقةً لأنواع التنغيم الأخرى للكلمة نفسها، ولكى يتغلب الإنجليز والأمريكان على ذلك.. يحاولون أن يكتبوا الكلمة فى معاجمهم مرتين: مرة، تبعًا للصورة التى كانت عليها الكتابة، أيام كانت تنطق نطقًا مُعَينًا قبل عدة قرون. ومرة بين قوسين تبعًا لما تطور له النطق فى الحاضر. خذ مثلًا.. (Emulate) ومعناها: تشبه به، لفظها المكتوب (إميوليت)، ولكنها تلفظ هكذا، كما كتبت بين شرطتين // Emuleit//!! ولفظها: (إمجوليت)، ولفظها الحرفى (أميولاتى)!! - إذا نطقنا كل حروفها.

حيْصَ بيْصَ:

- هم واقعون فى (حيْصَ بَيْصَ) -! - يَعِزّ عليهم أن يطّرحوا الخط القديم، وأن يكتبوها (وكذلك جل لغتهم) كما ينطقونها. حسب الحروف التى بين شرطتين. وهم غير قادرين على إعادة أصواتهم كما كانوا عليه من قبل قرون أو عقود!

- ونحن ننطق كما نكتب -على الإجمال - نكتب كما ننطق، بفضل القرآن الكريم - الذى .. أَحَدُ علومه، (علم التجويد)، الذى حفظ الصوت العربى نقيًا فى الفصحى كما كان فى الجاهلية، وكما

(١) رابَهُ: شكّ فيه.

نزل به القرآن الكريم على قلب رسولنا -محمد صلى الله عليه وسلم - بنطقه بلسانه الشريف - هذا النطق الذى أخذه عنه الصحابة -رضى الله عنهم - بالمشافهة. ثم أخذه التابعون عن الصحابة - بالمشافهة - كذلك. وهكذا ينتقل صوت الحروف من جيل إلى جيل بالمشافهة حتى يوم الناس هذا.. بل حتى يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، دون تحريف.

- أنعدل - إذن - عن تنوع التعبير إلى التنغيم، لأن الغرب ينغم، والتنويع.. بإقٍ ثابت، ومن طبيعة لغتنا، والتنغيم متغير لا يستقر على حال، مما يجعل.. منحى الصوت متغيرًا، يغير اللغة، فتنتقل مع الزمن إلى لغة أخرى - أصواتًا وتركيب حروف.. فتتغير اللغة، أو تنحرف عن أصولها، وهذا.. نجت منه العربية - التى تماثل ألفاظٌ فيها ألفاظَ القرآن. ثم .. أنتبع تنغيم الجزيرة العربية، على تعدده، أم مَطَّ الصوت الشامى أم خطفه فى اللهجة المصرية، أم انحباسه ثم اندفاعه فى المغربية؟ أم تُحمَل كلَ هذه البيئات على تنغيم أهل مكة فنكلفهم ما لا يطاق؟ - ونكلفهم ما ليس فى الطبع، -بسبب اختلاف البيئات -!

المثال السادس: (أكلونى البراغيث) - الذى أشرنا إليه - سابقًا:

ومع ذلك.. فالتنغيم -بحدود - موجود فى العربية - كما فى الاستفهام والتعجب والأمر.

- ويقول الدكتور عمايرة: (ولعل فى هذا.. ما يفسر لنا، بوضوح، اتساق لغة - أكلونى البراغيث - مع اللغة العربية السليمة. ولا يحول دون قبولها، مع كثرتها فى كتب التراث، ومع وجودها فى القرآن

الكريم وفى الحديث الشريف قال تعالى: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ٧١﴾ (المائدة – ٧١) ويقول: ﴿لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ٣﴾ (الأنبياء – ٢)، وجاء فى الحديث: «يتعاقبون فيكم – ملائكةٌ بالليلِ وملائكةٌ بالنهارِ» (ص–١٩٢).

الكاتب خلط بين نوعين من التعابير[1]:

– أقول: أولًا – لم يأتِ الكاتب – الدكتور خليل عمايرة، بجواب على هذه العبارة: (ولا يحول دون قبولها، مع ...) وهو غالبًا... [إلا أن النحاة اعتبروها شاذة ساقطة].

– وثانيًا: خلط الكاتب بين نوعين من الاستعمال: الأول: (أكلونى البراغيث). والثاني: «لاهيةً قلوبُهُمْ وأسرّوا النجوى الذين ظلموا: هل هذا إلا بشرٌ مثلُكُمْ أفتأتون السحر وأنتم تبصرون». فعبارة (أكلونى البراغيث) تختلف اختلافًا جوهريًا، عن عبارة القرآن. لأن (البراغيث) لا يستعمل معها (واو الجماعة) فى اللغة – عادةً، كما لا تستعمل مع كل جمع مذكر لغير العقلاء، إلا لغاية البلاغة، وإنما تستعمل مع العقلاء فقط. – وهنا نقول: لا يجوز أن أقول: (أكلونى – اللصوص) قياسيًا على الآية السابقة بدون غاية بلاغية، أما الآية فاستعمالها صحيح، لأن (الواو) ترد مع العقلاء (الذين ظلموا)، ولأنها جاءت لغاية بلاغية.

---

(١) انظر: كتابى = (العربية الفصحى...) – ١٤٠ – ١٤٥.

– بَيْـدَ أنى لا أوافق الكاتب إذْ يقول: [فما كانت الواو فى «أكلونى البراغيـث» إلا لتوكيد الفاعل] ص١٩٣ – بعد أن أجرى عددًا من صور التحويـل على العبـارة التى تبدأ بقولـه: (أكل البراغيثُ هم إياى)–. أقـول: لأن التوكيد لم يرد فى العربية سـابقًا المؤكـد –بفتح الكاف–. وتحويلاته هذه –إلى جانب خطئها – أكثر تعقيدًا من (علل النحو) التى اعترض هو عليها. يقول المؤلف: (فتكون الجملة التوليدية التى تتضمن المعنـى القريـب (أكل البراغيث إياى) –VOS – تتحـول الى: (أكل البراغيثُ البراغيثُ إياى – VSSO) أو: (أكل البراغيثُ إياى إياى)، فالتْحق الضمير بالفعل، ولكن برسم آخر، وهو –الواو – التى هى لاحقة تعـبر عن (البراغيـث إياى)، ثم جَرى فى الجملـة تحويل آخر. طبقًا لقواعـد النحو التحويلى، فأصبحت: (أكلونـى البراغيث) بإضافة نون الوقايـة التى لها وظيفة صوتية، نـص عليها علماء العرب فى كثير من أعمالهم. فما كانت الواو إلا لتوكيد الفاعل فى هذه اللهجة) ص– ١٩٢. انتهى كلام العمايرة.

– بالله عليك: هل صحيح أن ذهن العربى البدوى الأمى، يتسع لكل هذه التحويلات المعقدة؟ وإذا اتسع.. أتظن أن أحدًا يُطيق أن يتعلم لغة – بعـض عباراتها تمرّ بكل هذا التعقيد، ولو كان هذا الأحد هو الخليل ابـن أحمد الفراهيدى، فى القديم.. صاحـب العقل الرياضى العبقرى، أو آينشتاين فى الحديث.. صاحب النظرية النسبية؟!

– بلى، لا أوافقه، لأن التوكيد لم يرد سـابقًا للمؤكد – كما أسـلفنا – ولأن الواضـح لا يؤكد بالغامض. إن الضمير غامض، والاسـم واضح، فلا يمكن أن يؤكد الضميرُ (= الواوُ) الاسمَ الظاهرَ.

– وخـلاف هذا.. ورد فى القرآن الكريم. ووروده –فيه – دليل على فصاحته – بل.. على علوه بالفصاحة. إذ إن لغة القرآن (= كلام القرآن – أصحّ لغة. قال تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ توازيهـا عبارة (يتعاقبون فيكم) فى قول رسـولنا المعصـوم: [يتعاقبون فيكـم – ملائكةٌ بالليل – وملائكـةٌ بالنهار] وعبـارة (الذين ظلموا) – توازيهـا كلمة (ملائكةٌ). خاصةً أن عبـارة (الذين ظلموا) توازيها – من ناحية المعنى العامّ [لا من ناحية بلاغية] – كلمة (الظالمين)

– أى – كأنّ العبارة هكذا – ولله المثل الأعلى – (وأسروا النجوى – الظالمون).

أكلونى البراغيث - مرةً أخرى:

– بـل .. ها هنا مـا هو أبعد، فى إنكار النحـاة له، بأن – جعلوا عبارته تشـنيعًا على الذى يسـتعمل مثل هذا التكريب السابق، وهى: (أكلونـى البراغيث). والحق –أنها عبارة صحيحـة. عندما يراد منها –المجاز والبلاغة – المجاز الذى ينثال.. نتيجة التأثر العميق للمتحدث الذى ينبع من الشـعور – واللاشـعور. فهى عبارة – بلاغية – وليست عبارة نثرية عادية.

أما إعراب (البراغيث)، فالحق عندى أن (البراغيث) فى هذه العبارة هـى – أحدُ ثلاثة إعرابـات: هى (خبر) لمبتدأ محـذوف، تقديره فى نحو اللغة: (هى)، فى جملة اسـتفهامية مضمرة يسـتدعيها السـياق. فعندما قال: (أكلونى).. تنبه إلى سـائل قد يسـأل: (ما الذين أكلوك)؟ فكان جوابـه: البراغيث.. أى: هى البراغيث. أو البراغيث هى توكيد

أو توضيح (= بدل)، أو هى منصوبة على الاختصاص. فهذه ثلاثة إعرابات ممكنة.

– أما لماذا لا تصح (الواو) مع البراغيث أصلًا، -عند النحاة، ولا يصح هذا النوع من الاستعمال، لغةً معتمدةً.. وإنما صحت هنا- عندى؟ فذلك .. لأن الأعرابى استعمل (الواو) استعمالًا مجازيًا.. (من باب الاستعارة التصريحية)، فلما أكثرت البراغيث لدغه كبرت فى إحساسه حتى تصورها رجالًا يُقَرصونه، فقال مُلَهْوِجًا: (أكلونى) ثم تنبه أن ليس من رجال، فأردف: البراغيث، أى: هى البراغيث، ومع أن هذا التحليل طويل فى الكلام «غير أن العبارة الأصلية والجواب يلمعان فى ذهنه فى طرفة عين».

وقريب من هذا التعبير ما ورد فى القرآن الكريم، قال تعالى عن الكافرين: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (فُصِّلت – ٢١). فجاءت – الواو – مع (قالوا) لأن الجلود خوطبت خطاب العقلاء.

قضية بلاغية - لا نحوية - أصلا. ولكن، يقرها النحو:

– إذن.. القضية هى قضية بلاغية أصلًا، وليست قضية نحوية، ومع ذلك.. فصدر اللغة يتسع لمثل هذه التغييرات اللغوية التى تقتضيها حاجات بلاغية، لأن اللغة ذات منطق مرن، فهى (أى – اللغة العربية) تعى أن دورها الحقيقى – الوظيفى هو: أن تعبر عن معانى العقل، وعن خلجات النفس، ولهذا.. فهى ترى من وظيفتها وواجبها أن تكون مستعدة.

للتعبير عن كلا وجهى حياة الإنسان. أما تراها اتسعت لتفهم العقل الكلى والوجدان الكلى - المتمثلين فى القرآن الكريم - أولًا، وفى الحديث النبوى الشريف[1] - ثانيًا؟

١٢ - الجمل - كلها (توليدية - أى - أصلية) فحسْبُ:

- وإنه لحَسَنٌ -قبل الختام - أن نقف عند مصطلحى (الجملة التوليدية - والجملة التحويلية) - هاتين الجملتين اللتين شغف بهما الدارسون العرب المحْدَثون، فأصبحتا مِلح دراستهم النحوية، يحشرونهما حشرًا، أحيانًا، لكى يدللوا على أنهم عصريون؛ فهم على إطلاع على نظرية - تشو - فى النحو، وتكوّن اللغات-!، وهل بعد الاشتراب من نبع - تشو - اظطماء، أو حاجة إلى ماء السماء!.

- اصطلاحا - تشو - هاذان.. خاطئان. فليس فى الجمل - فى كل اللغات - جمل توليدية، وجمل تحويلية، - خلافًا لما قال تشو[2]. أو جمل أصلية وجمل فرعية، - خلافًا لما قال النحاة العرب، حتى المعاصرون منهم. - وإنما كل الجمل «توليدية» أى - كل الجمل أصلية. وليس فى اللغات جمل تحويلية - أو فرعية، فذلك الفهم المنحرف..

---

(١) فى كتابى المخطوط (العصمتان) سبق تحليل كامل للقاء بين الفكر الكُلّى والفكر الجزئى - فى الجزء الأول.

(٢) قد يكون مصطلحا - تشو - لا يعبران عن معنى : الجملة البسيطة، والجملة المركبة - وإنما قصد أن الجملة التى تنبثق على لسان المتكلم - سواءٌ أكانت بسيطة - أم مركبة - هى جملة توليدية. والجملة التى تتحول من هذا الترتيب إلى ترتيب آخر هى جملة تحويلية. فليس لقوله هذا - قيمة - بلاغية. بل هو مجرّد تعبير عن أن الجملة ذات الانبثاق الأول على اللسان قد يتولد منها أنواع أخرى من الترتيب. وهذا .. تصور يلامس - البديهيات.

ناتـج عن التصور «النظرى» للغات، مع أن الأمـر الطبيعى والمعقول أن ينظر للغات، حسـب تكونها التاريخى الطبيعى، وحسب واقعها القائم فى الاستعمال.

– الذين قالوا: إن فى اللغات جملًا توليدية، وأخرى تحويلية – أو أصلية وأخـرى فرعية.. إنما كانت رؤيتهم – تنظيرية سـاذجة، إنهم اعتقدوا أن الجملة التى تجرى مع التفكير العقلى البسـيط هى الأصل، لأنهـا تأتى بالفعل ثم الفاعل ثم المفعـول. أما الجملة التى تخالف هذا الترتيب – فى رؤيتهم فهى جملة فرعية أو – معدولة. وإذن.. هذا النوع من الجمل.. جاء متأخرًا، لأن الحياة – فى رأيهم – تنتقل من البسـيط إلى المركـب (أقول: وهذا.. صحيح، كثيرًا، وليس دائمًا). والجملة التى تأتـى مبتدئة بالفعل ثم الفاعل، ثم المفعول[1] – هى جملة بسـيطة. أما التى يتغير فيها هذا الترتيب، كأن تبدأ بالفاعل (الذى يسمى حينئذ.. مبتدءًا)، ثم.. الفعل، ثم.. المفعول – فهى جملة معقدة.

– إذن.. الجملـة البسـيطة –فـى رؤيتهم – (توليديـة، أو أصلية) والجملـة المعقدة (تحويلية أو –فرعية). أقول: وهذه رؤية «نظرية» تطفو فوق سطح اللغات، ولا تغوص فى أعماقها.

---

(١) ذلك.. لأن التصور التنظيرى للكلام يقول: لا بد لكل فعل من –فاعل – ولا بد أن الفاعل يصب فعله على شـىء – ما. وإذن.. يأتى الفاعل (وهنا يسـمى فى اصطلاح النحـاة مبتدءًا) ثـم الفعل، ثم المفعول. أو – إذا قدم الفعل (ولهذا..فلسـفة معينة) جاء بعده فاعله، ثم جاء مفعول للفاعل. وهذا.. تصور تنظيرى لا يضع فى حسابه – انفعال النفس، وجيشانها الذى يحطم هذا الترتيب البسيط، ويأتى بترتيب مركب – قد يسبق (بل – يسبق، فى الزمن) التركيب البسيط، لأن العاطفة كانت نامية، قبل العقل. ولكن، من غير أن نعكس من غير أن نقول: الجملة المركبة (أصل)، والجملة البسـيطة (فرع). بل –كل طراز من الجمل هو أصلى فى ميدانه وغير سابق للأصل الآخر.

– فالجمل فى اللغات كلها.. توليدية، أى: أصلية – ليس غيرُ–! ذلك، لأن الإنسان فى تطوره اللغوى –المنبثق عن تطوره الحضارى – لم يبدأ فى مرحلة كاملة (ليكن عمرها مئة سنة. أو مئة ألف سنة) بالتكلم بالكلام العقلى الفكرى الخالص، ثم.. تبعتها مرحلة أخرى – طُولُها كطول المرحلة السابقة – تكلم فيها بالجمل المعدولة التى هى نتيجة جيشان الوجدان (= العاطفة، والأحاسيس). هذا.. تصور خاطئ. فالصواب (إذا كان لا يد من تقديم مرحلة على أخرى) أن الإنسان بدأ بالنوع الثانى من الجمل التى سموها (التحويلية، أو المعدولة) – لأن الإنسان بدأ حياته بداية «عاطفية» لأنه كان يحس –باندهاش، وأحيانًا، بانشداه – أمام ما يفاجئه من عوامل الطبيعة، وموجوداتها، ومن غوامضها، فكان يعبر عنها –انفعاليًا – والتعبير الانفعالى، سواء أكان بكلمتين اثنتين فقط، أم كان بمئة جملة، لن يأتى تبعًا للترتيب العقلى الخالص للمعانى الذى يأتى الترتيب اللفظى عنه بسيطًا ومطابقًا له، وإنما يأتى التعبير الانفعالى تبعًا لتموجات العاطفة، فيقدم فيه المفعول أحيانًا يليه الفعل أو الفاعل – وأحيانًا يقدم الفاعل ثم الفعل، ثم المفعول..الخ – كما رأينا فى بيت الأخطل.

١٣ - طبيعةُ الشاعر:

– وهذا.. واضح فى الشعر الذى يعتمد – بالدرجة الأولى إلى التاسعة، على العاطفة، ويعتمد، فى الدرجة العاشرة فقط على العقل، فليس الشاعر إلا شخصًا عواطفه الفنية محتفظة بصورتها (البدائية)، ولكن مصقولة. ولهذا.. فأنت تراه يخالف الترتيب البسيط للجملة، كثيرًا،

وأكتفى -للتدليل - بأن نعود إلى ترتيب الأخطل لبيته السابق - لكى لا نطيل بعرض مثال، وتحليله - هذا البيت الذى بدأ لنا فيه التقديم والتأخير، بما يتناسب وعاطفة الشاعر، لا بما يتناسب والترتيب العقلى الخالص. وأن نعود إلى ترتيب القرآن الكريم - للآية: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾.

- إذن.. على أحسن تقدير، واحترامًا لتعبير العقل الذى نما عند الإنسان مع الزمن، حتى أصبحت معظم مجالات التعبير، فى الحضارات، من نصيبه -يمكننا أن نقول: إن التعبير العاطفى (الذى سَمَّوْهُ -خطًا - تحويليًا، أو -معدولًا).. أصل، لا شك فى ذلك. وإن التعبير العقلى.. أصل أيضًا.

- ولكن الدقة الواقعية تقرر أن الجمل الشاعرية (=العاطفية) سابقة للجمل العلمية (=العقلية). بيد أن ذلك.. لا يعنى أن الجمل الشاعرية توليدية. والجمل العلمية تحويلية. كل منهما جملة توليدية (=أصلية) لأن مصدرها يختلف عن مصدر الأخرى - ولأن كلا منهما لم تقترض فى (بِنْيتِها) شيئًا من الأخرى. مع مساعدة يسيرة تأتى من المصدر الآخر. فى الجمل العقلية.. لابد من حفز من العاطفة للعقل. وفى الجمل العاطفية.. لا بد من إضاءة من العقل تنير طريق العاطفة.

- وبهذا.. يكون واضحًا لنا أن الزعم بأن الجمل منها جمل توليدية، أو - أصلية، وأخرى تحويلية، أو - معدولة.. زعم نظرى، لا أساسَ له من الصحة الواقعية التى يقدمها لنا تاريخ تطور الإنسان - المتصل به. والمتصاقب معه تاريخ تطور اللغات - القائم على «تنوع» الجمل،

فـــى كل مرحلة ما بين جمل عقلية – وأخرى عاطفية، وليس على نوع واحد من الجمل، خاصة بعد أن نما عقل الإنســـان. وأضحى يعبر عن مطالب حضارية للإنســـان – إلى جانـــب المطالب العاطفية التى تولدت بولادة الإنسان.

– وإذن.. يذهب نصف نظرية –تشو – اللغوية، مع الريح. ويذهب كل ما قاله النحاة العرب منذ الخليل ابن أحمد – وسيبويه (رحمهم الله تعالى) حتى هذا اليوم – فى موضوع الجمل الأصلية، والجمل المعدولة – أدراج الرياح.

ولكن.. يمكن التفريق بين نوعَى الجمل – بأن نقول: جملٌ بســيطةٌ – وهـــى التى تتوالى فيها الألفاظ بتركيب نحوى بســيط: فعلٌ – فاعلٌ مفعولٌ. أو – مبتدأٌ – خبرٌ. أو فعلٌ – فاعلٌ – حالٌ – وهكذا..

«وجمـــلٌ مركبةٌ.. وهـــى التى يتغير فيها الترتيـــب – مثلًا: فعلٌ – مفعولٌ – فاعلٌ – أو مفعولٌ – فعلٌ – فاعلٌ – أو – مبدأٌ – فعلٌ – فاعلٌ – أو – مبدأٌ – فعلٌ – فاعل.. الخ.

والتمثيل عليها بالترتيب هكذا: الجمل البسيطة: – أصابَ المجتهدُ خيرًا – المخلصُ.. موفقٌ – عاد المســافر، راكبًا طيارة [طيارة.. مفعول لاسم الفاعل].

الجمل المركبة: أحســـن صلاتهُ ســعيدٌ – صلاتهُ.. أحســـن سعيدٌ – محمودٌ – جاء، يركض.

«النوع الأول – يكثر فى مجالات العلوم والفكر والنقد..والنوع الثانى– يكثر فى مجالات الأدب.

نتيجـــةً:

– أرأيت – أخى العربى – أن – تشو – هذا الذى أصبح شعارًا يُزيِّنُ به النحاة العرب المعاصرون، ودارسو النحو.. كتبهم.. وكأنّ ما جاء به هو الحق الذى لا يعتريه باطل! – وكأنه الجديد الذى هو أبو عِذْرَتِهِ، ومفـترع عُذْرِيّتِهِ–!. – لم يأتِ بجديد بذكر –! – فأين – أنتم – أيها النحاة الفضلاء من عالمَـين الكبيرين – هما: الإمام الجرجانى، والمفكر ابن خلدون اللذيْن سـبقا – تشو – بقرون متطاولة؟ أم أن المغلوب مُولعٌ –أبـدًا – بتقليـد الغالب – كما قـال جدنا العظيـم – ابن خلدون؟! يرحمـه الله تعـالى. فمتى نوقن أننا أمة ذات كنوز – معرفية – سـبقوا بهـا الغـرب، فى مجال الفكر الإنسـانى – الأخلاقـى – وفى مجال الفكر اللغوى؟ متى – ومتى؟.

تلخيـصّ

وأخـيرًا.. نلخص ما سـبق من النـوع الثانى، من القسـم الثانى، وهـو.. المقارنـة بين العباقـرة الثلاثة – فى رؤيتهم للغـة – فى النقاط الثمانى الآتية:

١ – مصطلح الفطرية والشمولية.. مضمونُهما بديهي؛ إذ لا يمكن أن يتعلم الإنسـان شيئًا – لغة أو غير لغة – لولا أنه مزود باستعداد فطرى لذلك. ثم.. لا يمكن أن يأتى بجديد فى الفكر والأدب لولا أن عقله قابل لتكويـن قوالـب لفظية وإن كانت محدودة.. قـادرة على إنتاج عبارات غير محدودة. وهذا.. فهم، كان ابن خلدون قد سبق فى توضيحه تشو. والقرآن الكريم أتى بتوضيح ذلك قبل ابن خلدون وتشو. على أن تُفهم –

الفطرية، والشمولية – بأنهما (الاستعداد) منذ الولادة، وليس وجود قوالب، وقوانين، منذ الولادة.

٢ – اللغة اكتساب، كما يقول السلوكيون، ولكنْ لا يتمّ تعلُّم اللغة لولا أن فى بعض خلايا الدماغ، استعدادًا لاستقبال اللغة. ثم يتكون فيها قوالب قادرة على إنتاج اللغة.

٣ -لا فرقَ كبيرًا بين الفطرية والشمولية من جهة وبين القدرة (=الملكة) والأداء من جهة أخرى، وهذان المفهومان سبق بهما ابن خلدون –تشو – أيضًا.

٤ -عَمَلُ النفس وسفزها للعقل، ضرورى لتلقى اللغة ثم لإنتاج الكلام و(=الكلام) يقوىَ ويتشكل تشكلًا مدهشًا – مُركّبًا – فى مجال الأدب. ويضعف، ويترتب ترتبًا بسيطًا فى مجالى العلم والفكر.

٥ – إن مصطلحى البنية الخفية، والبنية الظاهرة.. أدقّ من مصطلحى البنية العميقة والبنية السطحية.

٦ – التطابق التامّ بين الأداء والقدرة اللغوية لا يكون إلا فى القرآن الكريم، ويكون بنسبة عالية فى الأدب الرفيع، ويضعف فى الأدب الرديء، وقد تكلم عن هذا الأمر اللغوى الناقد الإمام الجرجانى. ومثاله.. أبيات البحترى السابقة، دلالة على التطابق شبه التامّ. ولكن دلالة على (الانحراف) عن طريق تراجع القدرة اللغوية بيت المتنبى – السابق.

٧ – ليس صحيحًا أن تغيير ترتيب الكلام لا يؤثر على ظلال المعنى وإيحاءاته. بلى.. المعنى المركزى قد لا يتأثر. ولكن ظلال المعنى وإيحاءاته

تتأثر. لقد أدرك الجرجانى هذا بوضوح، ولم يدركه تشو. وله عُذر من طبيعة لغته – الأنماطية.

٨ – ليس فى اللغات.. جملة أصلية، أو –توليدية، وجملة فرعية (معدولة)، أو تحويلية – وإنما كل الجمل.. «أصلية» أو توليدية». والقول الأول خطأ واضح، فى نظرية تشو. فليس فى اللغة جمل تحويلية إلا على معنىً غير بلاغى، وفى كل ما قاله النحاة العرب فى أن فى اللغة جملاً فرعية أو معدولة. فالمعانى العاطفية، والمعانى العقلية.. تَولّدَ بعضٌ من كلٍ منها، فى حقبة زمنية واحدة. بل – إن الجملة الشاعرية (=العاطفية) هى الأسبق. بيد أن الجملة العقلية ليست متولدة عنها (ليست فرعًا منها)، وإن تأخرت عنها فى الوجود. فلكل من الجملتين مصدر يكون له التأثير الأقوى فى توليدها ويكون للمصدر الآخر تأثير مساعد.. فجملُ العلوم والفكر – بسيطةٌ – وجملُ الآداب – مركبةٌ.

○○○

خلاصةُ البحثِ كُلِّه:

١ – ابن خلدون مفكر – وصفى، استقرائى، تحليلى.

٢ – ابـن خلـدون – مفكـر موضوعـى – حيـادى – لا يصـل أفكاره بمرجعية.

٣ – يـرى ابـن خلـدون أن للعاميـات بلاغتهـا (وهذا..صحيـح)، ويمكن الاستغناء بها عن الفصحى. (وهذا.. رأى لا يقيم وزنًا للمرجعية الإسلامية، ولا ينبه إلى تميز الفصحى ، وهذا .. غير صحيح).

٤ – يرى أن ملكة اللغة مستقلة عن صناعة الإعراب.. (هذا.. صحيح، فى أيام السـليقة اللغوية. أما بعد ذلك، فلا يستغنى عن الجمع بين مطالعة الأدب، وبين صناعة الإعراب).

٥ – يعتبر الشـعر الإسـلامى أعلى من الشعر الجاهلى، (وهذا الرأى لا يوافقه عليه أحد) أما النثر إلى حدٍّ ما – والخطابة.. فهما أعلى منهما فى الجاهلية. (وهذا صحيح).

٦ – بعـض علماء صناعة الإعـراب فصحاء، لاتصالهم بالأدب الفصيح. وبعضهم لا يحسن كتابة صفحة، وهم الذين اكتفوا بالتفقه بالصناعة. (وهذا صحيح).

٧ – آراء ابـن خلـدون والجرجانى – وتشومسـكى – فى مجال طبيعة اللغة – وتكوُّن اللغة، وتوالدها، من قدر محدود من الجمل والتراكيب، تُكـوِّن قوالب فى خلايا الدمـاغ – آراء هؤلاء الثلاثة متقاربة. وعنها ينتج ما لا يحصى من التعابير والجمل.

٨ – توضيحات منى لمرونة العربية – وأن جمال النظم متعدد الوجوه، ما بين جمل بسيطة وأخرى مركبة:

(أ) حركات الإعراب .. لها ثلاثة وظائف:

الوظيفة الأولى: بيان المعنى المراد،

الثانية: التفريق بين معانى التراكيب.

والوظيفة الثالثة، اطّراد النسق.

(ب) لغة (أكلونى البراغيث) لغة صحيحة، إذ عبّرت عن غاية بلاغية.

(جـ) يتلون المعنى... حَسَبَ ترتيب الكلمات فى الجملة. وهذا ما أدركه الجرجانى، ولم يتضح عند – تشو.

٩ – ليس فى اللغة جمل – توليدية – وأخرى – تحويلية – كما يقول – تشو – وإنما الجمل كلها توليدية، ولكن بعضها كثير الشيوع، وبعضها نادر.. ولكن بعضها جمل – بسيطة، وبعضها جمل مركبة.

١٠ – أخيرًا.. ابن خلدون مفكر سياسى اجتماعى اقتصادى – وليس فقيه لغة، أو – ناقدًا محترفًا.. ولهذا.. جاءت بعضُ آرائه فى اللغة.. صائبة وبعضها خاطئةً. وأدنى من فقهه باللغة.. قدرتُهُ فى النقد.. ولذا، جاء رأيه عن شعر الإسلاميين – مخالفًا لحقيقة هذا الشعر الذى هبط عند حسان – وعند عمر ابن أبى ربيعة.. عن شعر الجاهليين.

والله تعالى أعلم

المصـــادر والمراجـــع

المصـــادر:

١ – القرآن الكريم.

٢ – مقدمة ابن خلدون – بيروت/ دار الكتاب اللبنانى، ١٩٦١م.

المراجـــع:

١ – صحيح البخارى، الإمام محمد ابن إسماعيل (ت٢٥٤هـ).

٢ – الجاحظ، عمر ابن بحر (ت٢٥٥)، كتاب الحيوان، ج٣، بيروت/ دار الجيل، تحقيق وشرح: محمد عبد السلام هارون.

٣ – خليل أحمد عمايرة، فى نحو اللغة وتراكيبها، عالم المعرفة والنشر والتوزيع السعودية، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

٤ – زينـب محمـود الخضيرى – فلسـفة التاريخ عند ابـن خلدون – بيروت/ دار التنوير – ١٩٨٢م.

٥ – صبحى الصالح: علوم الحديث ومصطلحه – دمشق/ جامعة دمشق – ١٩٥٩.

٦ – الإمـام عبـد القاهـر الجرجانـى (ت–٤٧١)، دلائـل الإعجاز، القاهـرة/ مكتبة الخانجـى، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، قـرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر.

٧ – علـى عبد الواحد وافى – الظاهرات الاجتماعية فى موضوع مقدمة ابن خلدون – القاهرة/ منشورات المركز القومى – ١٩٦٢م.

٨ – عودة الله منيع القيسى – منابع الشعر ومكانة الشاعرة – عمان/ جمعية عمّال المطابع التعاونية – ٢٠٠٢م.
٩ – رائية ابن أبى ربيعة فى حبيبته – نُعْمٍ – عمان / دار البداية – ٢٠٠٣م.
١٠ – العربية الفصحى – مرونتها وعقلانيتها وأسباب خلودها – عمان/ دار البداية – ٢٠٠٨.
١١ – رُؤىً – نحوية وصرفية – تجديدية – عمان/ دار البداية – ٢٠١١م.
١٢ – ابن منظور – لسان العرب – بيروت / دار لسان العرب – د.ت.
١٣ – محمد جابر الأنصارى – مقدمة ابن خلدون لم تؤثر فى اللاحقين – (مقالة) فى مجلة: العربى – العدد – ٥٧٢ – السنة – ٢٠٠٦م.

obeikandl.com